وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، و«اتقوا النار »؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هى التى تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - "غفوراً" ، و"رحيماً" ، "باسطاً" ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التى منها جبار ومنتقم.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

وإذ تنصرف إلى الزمن ، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم ، والآخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشيء المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هى العناصر . ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولابد أن نرى تصريفاً فى هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه.

والمثال : إن أنا أخذتُ منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال فى هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه :

(لما خلق الله أدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال : أىْ رَبِّ. من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال : أى رب. من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال : رب كم جعلت عمره؟ قال : ستين سنة. قال : أى رب زده من عمرى أربعين سنة، فلما قُضى عُمُر آدم جاءه ملك الموت. فقال : أو لم يَبْقَ من عُمُرى أربعون سنة؟ قال : أولم تعطها ابنك داود؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته، ونسى فنسيت ذريته. وخطئ آدم فخطئت ذريته)[1].

إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرَّةً فى ظهر أبيه، وأبوه كان ذرّة فى ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون- كذرية- ولا يؤخذ منهم، مثّل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذى فى سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخـوذ منه آدم ثـم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجـيل الأخـيـر الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبى صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهـر آدم وأخرج منه الذرية، وقـال لهم : ألست بربكم؟ قـالوا : بلى. وبهـذا عَلِمْنا أنّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها، وأُخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه، اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شىء، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنوىّ. ولو أن الحيوانَ المَنوىَّ أصابه موت لما أنجب الأب. ومن وُلد من حيوان مَنَوِىّ لأب، هذا الأب مأخوذ من حيوان مَنَوىًّ حىّ من الجد أيضاً، وسلسلها إلىَ آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزىء حَىّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون فى ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره، ومادام كل شىء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شىء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذريةَ وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم﴾ ؟.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ " البويضة " فى رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يَتعلَّم عَشْرَ لغات، ويتزوجَ من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيدّة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلا، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة معَ من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألاَ يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبى معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أياً من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ فى القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب إشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحى، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التى يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء والأرض:

﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبى من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التى تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها.

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه، ويجيبُه جميعُ خلقه، فلا تقل: كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذَّر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا: ألست بربكم ؟. قالوا: بلىَ. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكون إلهاً خالقاً قادرا مدبرا.

وقديماً قلنا: هب أنَّ طائرةً وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكّرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا تتلفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام ؟. كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين ؛ ألا يجدر به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها ؟ . وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً ؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يَدَّع لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن.وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسبانا، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة.

﴿ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتى لنا رسولٌ من طرفِ تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالى فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسولٍ مرادَ الحق من الخلق، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التى خلقتكم هو اللهُ، وله مطلق التصرف فى هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون فى ضوء منهج عبادة الحق الذى خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوة خالقة وراءَ هذا الكون ، وتستوى العقول الفطرية فى هذه المسألة. أما اسم القُوة والمَنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم فى البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أى "ماوراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذى قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التى هدتنى إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل ؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها . وغرق الكثيرون من الفلاسفة فى القلق النفسى المدمِّر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإننى فى هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو آلا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين فى حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب ؛ وهذا الشىء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن نتصور من الطارق ؟ رجل؟ امرأة؟ شاب ؟ شيخ؟. المؤكد أننا سنختلف فى التصور وإن اتحدنا فى التعقل.

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجئ رسول يحل لكم لغز هذا الكون، واسم القوة التى وراء هذا الكون، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة فى الطفل المولود الذى يبحث بفمه عن ثدى أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدى ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هى التى تصون الإنسان منا فى حاجات كثيرة، وفى رد الفعل الانعكاسى ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن فى عالم الذر :

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

ويقال " أشهدته " أى جعلته شاهداً، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره؛ فقد يغيّر الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة :

﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾

فحين يأتى يوم الحساب، لا داعى أن يقولَن أحد إننى كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة فى كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطرى قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو فى علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟. طبعاً هذا مستحيل، وأجاب كل الذر بالفطرة "بلى". وهى تحمل نفى النفى، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ سورة التين)

و"أليس" للاستفهام عن النفى؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع "أليس" عليك أن تقول "بلى" وبذلك تنفى النفى أى أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه، وهنا يقول الحق : "ألست بربكم" ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب، والذى جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرك شهواتهم فى نطاق الاختيار، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله، ومادام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولَنَّ أحدٌ : ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التى يتعللون ويعتذرون بها تنحصر فى أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر ، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقليد؟. الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية ، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوى المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة ، ثم جاء إشراك الآباء فى المرحلة الثانية ؛ لأن كل واحد لو قلد أباه فى الإشراك ؛ لانتهى الشرك إلى آدم ، وآدم لم يكن مشركاً ، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بنى آدم ، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقةً يتطلبها المنهج ، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد فى بؤرة شعورهم ؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود فى بؤرة شعوره . أما الشىء الذى سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه ، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهى الغفلة فى آبائهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة ، وعامل الأسوة فى أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية فى بؤرة الشعور ، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه ؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره فى بؤرة الشعور ، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن فى التكليف الإيمانى مشقة ، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه ، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف.

ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَديناً لمحل بقالة أو لنجار وليس عنده مال يعطيه له ، لذلك يحاول أن يبتعد عن محَل هذا البقال ، أو أن يسِّير بعيدا عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة فى ظاهره هو أمراً مَنْجياً من مشقات التكاليف، لكن البشر فى ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شهدنا ﴾

وقد أُخذَ ذلك العهدُ عليهم، وأقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم، على أنفسهم حتى لا يقَولوا يوم القيامه ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أنَّنا بشرٌ، وقال فى أبينا آدم :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادام آدم قد نسى، فنسيانه يقع عليه حيث بيَّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١) .

والخطأ معلوم، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرُه، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان. والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها مالم يفعل ما يؤمر به، وفى الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم. وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم. وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذى خُلق بيد الله المباشرة، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون ؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتى النسل.

وقد كلف الله آدم فى الجنة التى أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهى ؛ فقال له سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدار قطنى والطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى "افعل" ، ونهى فى " لاتفعل ؛ ، وقد نسى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاءا هو أمر لمصلحة آدم ، و«لاتقرب » هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

والآيات التى فصلها الحق هنا هى العهود الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذى اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةٌ يجب أن تكون فى بؤرة الشعور، فمن غفل فليتذكر، ومن قلد آباه فى شىء مخالف للمنهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلفك وأنت فى حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك. لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالا كاملا مثل والدك، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إننى أقلد أبى ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو فى دور الطفولة، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتى للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجىء أوان تكليف الله، ويقول النبى عليه الصلاة والسلام :

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع .. إلخ)[1]

الأب إذن يأمُرُ ويُعاقبُ قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ.

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾.

أى أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر، وأن يرجع المقلد لآبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين صـ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ولأنهم قالوا : ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر . ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾ ، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً، ويقال : إنه قد قيل فى « ابن بعوراء » أو أمية بن أبى الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أنّ إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان.

و كلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل فى السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله «فاسقاً» مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتنكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج «فاسقاً» من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿آتيناه آياتنا﴾. وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يتدلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهى تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة - مثلاً - لا تسلخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف: الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلى، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعنى، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجرى وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكى الشيطان فى نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصى تأتى مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان فى الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلا - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التى تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ فى الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأى ظرف طارىء ثم ألحت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت فى معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت فى معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

(من الآية ١٧٥ سورة الأعراف)

الغاوى والغَوىّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريقَ الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء. وهو الذى يُسمى « الغاوى »، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفْسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾



وهنا أمران اثنان، الرفعة : وهى العلو والتسامى، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاد إلى الأرض أى إلى التسفل، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين.

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾، والفعل رفع هنا مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض. وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولو شئنا ﴾ أى أنها مشيئتنا. فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار، والحق يريد أن يُبقَى للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ﴾ .

وفى هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمرا، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شىء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظرى، فيه أخذ ورد، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا فى السفينة وخرقها العبد الصالح، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لماذا ؟ . لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريده، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم فى كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطىء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا تفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طردا أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضا يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية فى الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجرى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجرى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعا أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟؛ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

هكذا يكون مصير من كذَّب بالآيات .

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلقطة جديدة، لتعدد ما فى القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن القصة أمر واقعى ، والتقنين للمناهج أمر لفظى ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع .

وهكذا بيّن الحقّ سبحانه وتعالى فى هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم .

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء » ، هذا الذى آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذى فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلى يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغى أن تقولوا: وما ذنب الكلب فى أنه يلهث، ويضرب به المثل فى الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذى ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك فى الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هى؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار، بل مهته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع. إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هى ذما للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها، وأراد الله المثل فيها بشىء لاتذم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذى لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة فى الحياة، حتى وإن كان فى نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لى هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائما فى قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية فى هذا الرجل المسمى " ابن باعوراء " ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، ولستم بدعاً فى هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة " مثل " إذا سمعتها هى من مادة الـ" م " والـ" ث " والـ" لام " ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مِثْل «بكسر الميم وسكون الثاء»، وإما أن تنطقها مَثَل «بفتح الميم والثاء»، والمِثْلَ هو المشابه والنظير، فتقول : فلان مِثْل فلان فى الكرم، فى العلَم، فى الطول، فى العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه فى شيء ؛ لأنه مُنَزّه فى الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا ، أى أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجرى اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنَّه مَثَلٌ ؛ كقولنا عن الكريم : " هو حاتم " لأن شهرة حاتم فى الكرم جعلته مَثَلاً. والفرق أنك إذا قلت فى فلان إنه يشبه حاتماً فى الكرم، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم فى الكرم، أو مَثَل عنترَة فى الشجاعة. والمَثَل فى الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر [1] الخليفة [2] قال فيه :

(١) أبو تمام (٢) أحمد بن المعتصم

إقدام عمرو [١] (فى شجاعته) فى سماحة حاتم (أى الطائي) فى حلم أحنف (الأحنف [٢] بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفى ذكاء إياس [٣].

وقال رجل من القوم : كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو بالنسبة للأمير ؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟!

فقال الشاعر :

وشبهه المدّاح فى الباس والندى

بمن لو رآه كان أصغر خـادم

ففى جيشه خمسون ألفاً كعنتر

وفى خُـزنه ألف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته ؛ فقال :

" لاتنكروا ضربى لـه من دونه

مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقـل لنوره

مثـلا من المشكاة والنبراس

وكأن الشاعر يقول: أنا ضربت بهم المثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .

---

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر فى المثل، فقد تقول : فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً فى التاريخ ، أو تقول : "فلان عنتر" ، أو "فلان إياس" ، وفى ذلك يرتقى التشبيه، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أى أنك تشبه الحالة التى قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أمَّ إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلَّت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها فى شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : "ما وراءكِ يا عصامُ؟" قالت : "أبدى المخض عن الزُّبد» أى أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : "ما وراءك يا عصام؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدى الجهد فيه يقال عنه : "أبدى المخض عن الزبد" . فحين ينجح الولد ويأتى بالمجموع المناسب يقال : "أبدى المخض عن الزبد" .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه :

﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها فى الاحتقار منكم والقلة فى الحجم مما تنكرونه ، وهو الضآلة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه فى المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعنى المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أى أنتم يابنى إسرائيل مَثَلكم مثل الرجل الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم فى التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذى جاء ذكره فى التوراة، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به. وصار مثلكم كمثل الرجل الذى آتاه الله الآيات فانسلخ منها. ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التى يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التى يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله، وكذلك آيات القرآن التى تحمل منهج الله.

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان، وأنت لن تحكى الأمر التافه، بل ستحكى ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر.

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل فى المقارنات بين البديلات المتنوعة ليُرَجّح بديلاً على بديل فتُعقلَ به القضايا.

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفى فيما يقال. والمثال فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى " فما فوقها " لا يعنى الأعلى منها فى القوة ، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ ﴾